الفصل الخامس والأربعون
لانعتز بالذكريات

ذات يوم أخذت تنفض على مسمع صديقتها خولة تفاصيل كيـف جاءهـا المخاض يوم اعتقلوها، وكيف أثر ذلك على جنينها فولدته قبـل الأوان.. ومـا جرى يوم جاؤوا لاعتقالها ثانية وهي لا تزال نفساء.. وكان أحمد واجما مستاءا لحديثها وهو يقرأ الصحيفة.. ولما خرجت، قال لها:

-لا تذكري هذه القصة أبدا..

وتطلعت اليه مستغربة متفرسة جاهدة أن تفهم ما يدور في خلده:

-أصبحت تخجل من ذكرى أعتز بها.. فكيف لو سجنت أنا الأخرى؟

-أهي ذكرى للإعتزاز؟ يجب أن نبكي دما لأننا نعيش في مجتمع متخلّف متوحش.. في كل العالم المتحضر لا يجري مثل ما يجري عنـدنا، لأن هنـاك إنسان تقدم في حضارته، ورأي عام لا يسمح بالوحشية..

-وما ذنبي أنا؟ انني أرغب في استماع تجارب الآخرين، وأقـص علـيهم تجربتي وما عانيت..

-هل تجدينني أحتفل وأعتز بما جرى لي؟ لعلمك أنني نجوت من المـوت بأعجوبة! أرادوا إبعادي الى اللاذقية ليصفّوني جسديا، أو يتركوني مجنونـا لا أعي! لاأريد أن أسترجع الذكريات التي أريد أن أنساها.. ولا أريـد أن أذكـر بأنك كنت عرضة لأذى المتوحشين.. لقد اضطر أحد ذئـاب المباحـث فتـاة مناضلة ليجعل منها خليلته.. أم أنك لم تسمعي بهذه القصة؟

-سمعت.. ولكن هل اذا وقع حادث سيارة نمتنع عن الخروج الى الطريق؟

-أتركي عالم الرجال، لا أريد أن تكوني متهمة وفي متناول الأوباش.. لا تظني أن المجتمع يحترم كثيرا التضحيات.. ويحترم كثيرا النساء اللواتي يدخلن السجون أو المحاكم لأي سبب كان..

-أحمد مابك؟ هل ينظر زوج خولة نظرة المجتمع اليهـا لأنهـا دخلـت السجن؟

-لا أستطيع أن أكون وحيدا.. أنا أيضا جزء من المجتمع..

-أي مجتمع؟ أنت تتحدث عن تلك الفئة التي أعتبرها أتفه من أن أحـسب لها حسابا! ولكنني أفهم...

-ماذا تفهمين؟ من الأفضل لك أن لا تبلغي في الفهم غايته فيحطّمك هؤلاء الذين لا تحسبين لهم حسابا..

-لماذا تفعل هذا بي؟ تريدني امرأة لا يـذكرها النـاس بخيـر أو بـشر، منزوية، لا تطمح الى هدف بعيد..

-وماذا في هذا؟ ألا تعجبك هذه المرأة؟

-انه نفي لوجودي وموهبتي أن تذعنني كأية واحدة من الغمار..

-شتان بين أمي وأم أبنائي.. كانت تنفي نفسها لتوجد رجالا، وأنت تنفـين من حولك ليذكرك الناس، بل الأحرى ليلوكوا سمعتك وسمعتي..

-ماذا أذنبت في حقك كي تجرحني؟ ماذا أذنبت في حق المجتمع كي يلوك سمعتي؟ الاّ اذا كان النضال بالكلمة أذية للمجتمع.. اننـي أعطـي ولا آخـذ.. أستطيع أن أكون امرأة أخرى: أنانية، منافقة، أستطيع أن أكون في المقدمة لـو أنني أفكر في مصلحتي، وأتخلى عن كبرياء الكلمة وصدقها، ولكنني لا أفعل.. لا أستطيع أن أنزع من قلبي ذلك القلق لمصير الإنسان في وطنـي، وأعـيش لازدهار أحوالي..

-لا أحد يطلب منك ذلك، ولكنك اذ تعرضين نفسك للأذى تعرضيني لأذى أكبر لأنني هدف وأنت لست كذلك.. ان حركتك تعيق حركتي ولا تدفعني الـى الأمام.. هذا ماوددت أن أفهمك اياه وتأبين أن تفهميه..

-لست أفهم كيف تعيق حركتي حركتك اذا كنا نسير في طريق واحد..

-أنا صاحب مبدأ، ولست دجالا..

-ماذا تعني؟

-لست أحمل الشعارات لأتزين..

-وهل تظن بأنني أتزين؟

-كل شيء ينبع عندك من الزينة وحب الظهور!

-انك تهينني حتى أتمنى لو أتخلى عنك..

-سيأتي اليوم الذي تتخلين فيه عني كالآخرين.. لست أفضل من الآخرين، لست أفضل!..

-من حسن حظك أنني أفهمك أحسن مما تفهمني، فكن واثقا أنني لا أتخلى عنك ما حييت!..

-سنرى .. أما اذا خطر لك هذا، فثقي أنني لن أقف في طريقك.. تذهبين ولا تعودي!.. انني وحيد..عرفت من قسوة الناس ما فيه الكفاية فلـن يزيـدني تخليك عن هذا البيت تعاسة..

-لن أتخلى عنك، ولن تتخلى عني.. خلق أحدنا للآخر، وسنبقى معا الـى الأبد..

-لا تظني بأنني مغرم بك ولا أستطيع التخلي عنك! كان هذا في الماضي، ولقد استنفذت كل عواطفي بحماقاتك! وابتسمت مها وقالت:

-أرى أنك مغرم بي اليوم أكثر من كل وقت مضى!

-تطعمين نفسك جوزا فارغا!

-من سوء حظي أنني أنا المغرمة بك، وهذه مأساتي!

في تلك الليلة كان حردا، يدير لها ظهره ولا يكلمها.. وكان المسجل الذي وضع فيه شريطا لأم كلثوم "للصبر حدود" يبعث اليها رسالة منذرة تكشف عن تحول حبه لها وغضبه منها..

مها تراجع نفسها

لا بد أنك يا مها تعطلين عمله..

لا بد أنك تشغلين فكره بأكثر مما ينبغي، وتبعثرين قواه..

لا بد أنك تعرقلين حركته وتجعلينه في هم دائـم، مـشغول البـال بـك وبوليدك..

لابد أنك تسيئين اليه، وتعرضينه للخطر بكشفك أسرارا لا يريـد البـوح بها..

لا بد أن من الأنسب للرجل مثله أن تكون له زوجة ترعاه وترعى بيته، لا أن تكون زوجة طموحة مثلك!

ليتك لم تتزوجيه، وبقيت أنت نفسك دون زواج..

كلاكما تحملان ذلك القلق الإنساني لمصائر الآخرين، فتفسدان مصيركما..

كلاكما بحاجة لمن يرعاكما، ويخدمكما لتتفرغا لما أعدته لكما الحياة..

وحين تتخلين أنت عن واجبك كامرأة هل تطالبينه أن يقوم عنك بما ألقـاه المجتمع على كاهلك؟

لا حرية للمرأة يا مها ان لم يحررها المجتمع..

لاحرية لها ان لم تقم المؤسسات بعبء البيت والأولاد عنها..

لاحرية لك يامها ان لم يتحرر مجتمعك ويتصنع، وقامت الآلة عنك بكـل الأعمال التافهة التي استعبدتك ألوف السنين..

وزوجك يناضل من أجل هذا المجتمع، ويناضل من أجلك، حتى لا يكـون عملك خارج البيت عبودية جديدة لك..

انه يعمل على تحريرك..

وبدل أن تكوني شاكرة له تنغصين حياته!

وتقدمت منه مها، ووضعت يدها على كتفه، فتنهد:

-كفى يامها لا فائدة! أرى أن حريتك عزيزة لديك..

-نعم عزيزة علي، ولكن ثق أنها ليست أعز علي منك، لا لأنك زوجـي الذي أحب فحسب، ولكن لأنك المناضل الذي يحررني ويكفـل لـي أبعـادي الإنسانية.. ان كنت تجد عندي موهبة، فهي لك لتعزز قوتـك وتـدعمك فـي نضالك.. لن أخرج أبدا عن مسارك، لأنني أومن بك أنت، في صـفاء ذهنـك ورؤيتك الحقيقة في شمولها، وأومن بك في وحدتك، وأومن بك حـين يتخلـى عنك الآخرون..

أنت تغضب من أجل الحقيقة، تغضب للحلم الكبير الذي تهشم على صخور الإنتهازيين.. تغضب لا حسدا ولا غرورا ولا طموحا فرديا، ولكن لأنك تؤمن أن هذا هو الطريق!..

تحتمل الحرمان، وتكتفي بما يحفظ عليك الوجود، وتحتمل حرمان مبـاهج الحياة، من أجل أن تصل كلمتك الى وعي الجماهير!

ليتغن الفرديون والإنتهازيون بفرديتهم وانتهـازيتهم، فلـن يزرعـوا الاّ حنظلا، ولن يحصدوا الاّ الهزائم..

واذا كان لا بد من الصراع، فليكن هذا الصراع!

ولنحتمله، ونكون أكبر منه!

-هل أنت مقتنعة بما تقولين؟

-كل الإقتناع..

-ولا تتحولين عنه؟

-أتمنى أن أملك الصدق والصبر..

-سنرى! وضمها الى صدره وقبلها بشوق غائب يعود، وأحـست قربـه بالإطمئنان..

-أنت مخيف حين تغضب مني.. لا أشعر معك حينها بالأمان!

-كيف يخطر لك أن تفكري هكذا؟

-تصبح باردا قاسيا متوحشا وأنت غاضب..

-لأنك عندي بالدنيا..

-وأنت عندي بالدنيا.. لن أجعل بعد اليوم لأدبي الأولوية في حياتي، فلـو خسرتك وخسرت عائلتي الصغيرة، فانني أخسر إلهام أدبي وعمري!..

النهاية